حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة ألقاها الاستاذ المحقّق السيد محمد خضر التونسي

في جمعية تمارين جاليات افريقية الشمالية بالقاهرة

— ٥ —

﴿ مؤلفاته ﴾

أتى ابن الخطيب في كتاب الاحاطة على بعض مؤلفات ابن خلدون فقال : شرح البردة شرحا بديعا دل به على انفساح ذرعه وتفنن ادراكه وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ،وعلق للسلطان ـ يعني ابن الاحمر ـ أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازي وألف كتاباً في الحساب، وشرع فيهذه الايام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال . وقال صاحب نفح الطيب بعد نقل ما جاء في الاحاطة من التعريف بابن خلدون : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادىء أمره وأواسطه فكيف لو رأى تاريخه الكبير . ومما قاله المقريزي في وصف مقدمة هذا التاريخ : وانه لعزيز أن ينال مجتهد مثالها ان هي الا زبدة المعارف والعلوم وبهجة العقول السليمة والفهوم .توقف على كنه الاشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والانباء . وتعبر عن حال الوجود ، وتنبيء على أصل كل موجود . بلفظ أبهى من الدر النظيم، وألطف من الماء مر به النسيم . ورام الشيخ ابن حجر ان يبخس كل أثر له حتى هذه المقدمة فقال في كتاب رفع الاصر بعد حكاية كلام المقريزي : وما وصفه به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية فمسلم . وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الامر كما قال

الا في بعض دون بعض ، الا ان البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن .

وقد نُقلت هذه المقدمة الى لغات اخرى من تركية وايطالية وفرنسية فكانت أحد الآثار العربية التي شهد بها الغربيون كيف يرتقي الفكر الناشيء في معاهد العلوم الاسلامية حتى يتسنى له أن يبحث في نظم الاجتماع وطرق الاصلاح على وجه بديع وأسلوب حكيم

ومتى صح أن النابغة لا يبدع في فن من فنون النظر ويطيل فيه النفَس الى الامد الاقصى إلا أن يتقدمه سلف يكون كواضع الاساس أو يحظى بصحبة من ينسج في البحث والمحاورة على منوال ذلك الفن فانا لم نر من الرجال الذين لقيهم ابن خلدون من يصح أن يكون مساعداً له على هذا المسلك الفلسفي الاجتماعي غير لسان الدين بن الخطيب . ولهذا كان ابن خلدون ينوّه بشأنه ويشيد بذكره اينما حل . قال الشيخ ابراهيم الباعوني الشافعي ـ فيما رآه صاحب نفح الطيب بخطه ـ : وكان (يعني ابن خلدون) يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الاسماع ، وينعقد على استحسانه الاجماع ، وتتقاصر عن ادراكه الاطماع

﴿ شعره ﴾

يعدّ ابن خلدون في قبيل الشعراء المجيدين ، ولكن انكبابه على مدارسة العلوم وقلة غدوّ قريحته ورواحها على النظم عاقه عن أن يبلغ في اتقان نسجه والابداع في فنون التخيل مبلغ المشهود لهم بالتفوق في هذه الصناعة

وقد اعترف هو نفسه بما يجده من استصعاب الشعر عليه وبُعد مأخذه منه عند ما يحاول نظمه . قال في مقدمة تاريخه : ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر ـ وكان الصدر المقدم في الشعر

والكتابة ــ فقلت له : أجد استصعابا عليّ في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وان كان محفوظي قليلا ، وانما أُتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية والقوانين التأليفية . وعدّد جملة من محفوظاته ثم قال : فامتلأ حفظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها . فنظر الىّ ساعة مُعجباً ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا الا مثلك !

ولصفاء فطرته وسلامة ذوقه قد يدرك شعرُه مع تلك العلة التي أومأ اليها غاية بعيدة فى الاجادة . ومن مثله الرائقة قصيدته التي انشدها سلطان المغرب ليلة الميلاد النبوي سنة ٧٦٣ وافتتحها بقوله :

أسرفنَ فى هجري وفي تعذيبي ... واطلنَ موقف عبرتي ونحيبي
وابين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

ومنها :

يا سائق الاظعان تعتسف الفلا ... وتواصل الاسآد بالتأويب
متجافيا عن رحل كل مذلل ... نشوان من أينٍ ومس لغوب
تتجاذب النفحات فضلَ ردائه ... في ملتقاها من صبا وجنوب
ان هام من ظمأ الصبابة صحبهُ ... نهلوا بمورد دمعه المسكوب
أو تعترض مسراهم سدف الدجى ... صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
هلا عطفت صدورهن الى التي ... فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤمُّ من اكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آبها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب

ومن أجود شعره وأعلاه مطلعاً في البلاغة قوله من قصيدة يهنيء بها أبا حمو بعيد الفطر :

هذي الديار فحيهن صباحا وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الاطلال ان لم تروها عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا أن لا يرين مع البعاد شحاحا
ايه على الحي الجميع وربما طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

وتعرض الشيخ ابن حجر لشعر ابن خلدون وقال : انه لم يكن ماهرا في النظم وكان يبالغ في كتمانه مع انه كان جيداً لنقد الشعر . وعدم مهارته في الشعر مسلم على معنى انه لم يصل الى درجة من أفرغوا جهدهم في هذه الصناعة وأصبحوا لا ترى تراجمهم الا في طبقات الشعراء . وقد أريناك من شعره مثلا يشهد بان له قوة شاعرية فطرية ، وهو المثل الاعلى لشعر من انصرف بهمته الى التضلع من العلوم النقلية والنظرية ثم مد يده الى الشعر على وجه التحلي بفن من فنون الادب الجميلة

﴿ مسجد شروان ﴾

في شهر مارس عام ١٩١٨ اقتحم جيش من الشيوعيين الارمن مدينة (شروان) من بلاد القفقاس فهدموها انتقاما لمن قتلهم الاتحاديون في تركيا من بني جلدتهم . وقد هدموا المدينة وقتلوا من لقوه من أهلها . ومما هدموه (مسجد الجمعة) وهو أول مسجد للاسلام في تلك الديار أنشأه قائد جيش الخلفاء الامويين في صدر الاسلام . وتقول مجلة (قنقاسيا الجديدة) التي تصدر في القسطنطينية ان اسم ذلك القائد العربي (أبو مسلم) . وارتفاع قبة المسجد عشرون مترا ونصف متر . وفيه خمس قباب وله خمسة أبواب وطوله ٢١٠ أمتار وعرضه ٥٠ مترا . وقد استعمل الارمن مقادير كبيرة من الديناميت وبراميل كثيرة من البنزين حتى تمكنوا من ازالة هذا المسجد الذي هو أقدم أثر للعرب والاسلام في بلاد القفقاس